

## بين القدماء والمحدثين

### مسرحية الضفادع لأرستوفان

إن قيل إن تاريخ الأحداث يعيد نفسه فوجدنا ما يصدق هذا القول من الأحداث المعاصرة، فتاريخ الأدب يعيد نفسه إعادة أدق وأصدق. والأدلة على أمانة هذه الإعادة لا تحتاج إلى بحث أو إشارة، وإنما يكفي فيها أن نطلع عليها. فهذا النزاع بين القدماء والمحدثين منذ وجد في تاريخ الآداب يكاد يعيد نفسه في التفاصيل الدقيقة في كل أدب وفي كل زمان، وحجج المحدثين واتهاماتهم كحجج القدماء واتهاماتهم هي لا تكاد تتغير بتغير الأزمان والأأم والآداب.

ولعل مسرحية أرستوفان التي سماها الضفادع والتي كتبها آخر القرون الخامس قبل الميلاد، تصور لنا النزاع كما نراه اليوم يتفق في كل هامٍ، ولا يكاد يفترق إلا في التافه والأقل. ولا تمتاز تلك المسرحية بأنها أقدم صورة وصلتنا لهذا النزاع، بل إنها أدقها وأكملها وربما كانت أجملها. فلقد صور لنا النزاع مسرحية شعرية أضاف إليها خيال الشاعر ونبوغه في فن المسرح حركة وحياة لا نجدهما فيما قد صور لنا من هذا النزاع في كتب تاريخ الأدب أو أخباره. أكثر من هذا أن المسرحية هزلية خففت السخرية المرة فيها من جفوة المتنازعين وحماستهم وجعلت العقل يمر بخطوات النزاع مروراً يسيراً خفيفاً لم يقلل يسره من عمقه ولا خفته من صدقه.

هذا أرستوفان عاش في أثنينا أو آخر القرن الخامس وأوائل الرابع قبل الميلاد، فشهد في جمهور المسرح صورة مصغرة من التحلل الذي بدأ يدب في كيان الأمة اليونانية. وهؤلاء شعراء المسرح، أو معاصرو الشباب كما يسميهم، لا يفتعلون أكثر من أن يمهّدوا لهذا الانحلال سبيله بما يقدمون للناس من

مسرحيات . وكأنهم لم يكتفوا بما فعل السفسطائيون وما أدخلوه من صنعة على الأدب والمتأدين ، فيها إفساد لعقول الشباب وملكاتهم فراحوا يقدمون هم أيضاً نصيهم من هذا الإفساد مسرحيات لا تحفز على عظمة ولا تحض على قبل ، بل لا تدل على خير .

إن المسرح الأثيني لم يكن كسارح اليوم يقف ببابه من يفرز الداخلين ، فلا يسمح إلا لمن دفع الثمن بالدخول . كلا ! إنه مسرح حر يؤمه الأثينيون أجمعون لا فرق بين غني وفقير . كل من أراد دخله ولا يكلفه الدخول شيئاً . لذلك كان خطره أشد وافساده للناس أبعد مدى . كل أثيني عرضة لهذا الإفساد . ومنذا الذي كان يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد في أثينا ولا يحب المسرح يدخله كلما سنحت له الفرصة . وهؤلاء كتّاب المسرح بدءوا يتملقون شعور النظارة بما يقدمون إليهم من نكات سمجة وموضوعات سهلة والجمهور يقبل ، والأدب الرخيص يؤلف في سرعة ، وعوامل الإفساد والانحلال تقوى وتشتد .

هذه هي الظروف التي مهدت لهذا النزاع أن يقوم في شدة وقوة . فهل تختلف تلك النذر عما ألفنا أن نجد في كل قومة لهذا النزاع في تاريخ الآداب على اختلافها ؟

وهذا عميد شعراء المأساة الشاعر العبقري أوريبيد الذي فتن به الأثينيون فرفعوه إلى عرش الفن ، وراحوا يقدمون له من إعجابهم قربانا . وتشجع الشاعر وراح يؤلف ويؤلف ، ونظر أرسطوفان في أدب أوريبيد فلم يجد في فنه الجديد جمالا على ما فيه من روعة ، وكل ما أحسه الشاعر هو أن هذا الجديد حامل قوى فيما أصاب الأثينيين في خلقهم ، فليصب جام غضبه على هذا الشاعر لأنه رمز التجديد ، بل هو في نظره رمز الإفساد باسم التجديد وراح يؤلف المسرحية تتاوها الأخرى ، كلها في نقد هذا الشاعر ، والخط من مركزه . ولكن النتيجة التي يعرفها كل قارئ لتاريخ أي أدب من الآداب هو أن الجديد يخلد بمجده ، وأن الجديد وإن يكن عاملا من عوامل الإفساد هو صورة جميلة للواقع الذي لا نستطيع أن نبرأ منه . فإن تكن مسرحيات أوريبيد في نظر أرسطوفان قد أفسدت الخلق الأثيني كما أراده هو ، فلقد نقت فيه من قوة الشخصية وحب الحقيقة ما لم يكن لمثل أرسطوفان أن يقدره . وليس المجد الحربي

أو السياسي ، للأسف ، هو المقياس الذي تقاس به حضارة الأمة . قلن ضعفت  
أثينا سياسياً في هذا القرن ، لقد بلغت في الحضارة أوجها في نفس هذا القرن  
الذي سخط فيه على الاثنيين أمثال أرسطوفان . ولكن أرسطوفان وأفلاطون  
من بعده وغيرهما لم يريدوا أن يروا شيئاً من هذا ، فليصبتوا سخطهم على الشعر  
والشعراء وليكن النجاح الذي صادفه أوريبيد حافزاً على الحقد عليه والإيمان  
في الحط من شأنه .

ومسرحية الضفادع ما هي إلا واحدة من تلك التي ألّفها أرسطوفان هجاء  
لأوريبيد وإن تكن أجملها . فقد تفنن فيها خياله فجعلها هزلية بارعة حقاً . هذا  
أوريبيد بطل التجديد . وبمحت أرسطوفان عن ممثل للقديم فلم يجد أفضل من  
شاعر المأساة العتيده اسخيلوس بطل المأساة القديمة وحامل لواء الأدب التقليدي ،  
هذا الأدب الذي لا يتحدث إلا عن الجميل ولا يحض إلا على الشجاعة والإقدام  
ولا يبصر إلا بالخيرات الطيبات . هذا هو المعلم الحق ، وأوريبيد هو المفسد  
الحق . فلتكن المسرحية امتحاناً لهما أو ميزاناً يوزنان به ، فيرى النظارة إلى من  
تكون الغلبة .

ولكن النظارة تحب أوريبيد ولقد نسيت اسخيلوس . وأرسطوفان ناقد  
حريّ يرى الجمال حيث هو ولا يتعاضى عنه في سبيل ما يجب من مُثل عليا للخلق  
الآثني . ولقد خفف موت أوريبيد كثيراً مما كان بينهما من حقد وعداوة .  
فالشاعر الجديد إذاً في هذا الميزان شيء من القيمة تجعل الامتحان شيق النتيجة ،  
فهو امتحان حق تعلق فيه قلوب النظارة وأسماعهم تلهفوا لسماع القول الفصل في  
شاعرين لكل منهما مزاياه . ترى أتكون الغلبة للجديد أم للقديم ؟ لما قد سوه  
أو لما قد أحبوه ؟ فلننظر إذاً في هذا الذي فعله أرسطوفان .

تبدأ المسرحية بأن إله اللذة والفن والهوى قد برم بالحياة بعد موت شاعر  
أثينا الفذ أوريبيد ، وهو يريد أن يعيده إلى الحياة بأي ثمن . لقد ذهب إلى  
أعماق الأرض بحكم الموت ، ولكن هرقل قد رحل من قبل رحلته المعروفة في  
غياهب الموت وعاد منها ، فاضر هذا الإله إذا حاول محاولة هرقل فتزل إلى الجحيم  
ليستخلص روح أوريبيد ويعود به إلى ظاهر الأرض ، إلى الحياة من جديد !  
هيا يا عبد اجمل حمولتك ولنذهب إلى ظلمات الجحيم نستخلص روح من كان  
يسعدنا ويلهينا . ويقوم العبد وما يحمل ليتبع سيده ، ويتنكر السيد في زي

هرقل ، فلعل في هذا ما يساعد على افتتاح ظلمات الموت . وتبدأ الرحلة . ومنظر إله الفن في زي البطل الحربى العظيم مبعث ضحك منذ افتتاح المسرحية . ويلتقى السيد وعبده بهذا وذلك وكلهم يأتيهما عن الطريق بأخبار ، وإذا هما أمام بحيرة الموت التى لا بد من عبورها ، ولا بد من رشوة النوتى بدنانير معدودات معلومات ، وإذاهما بالزورق الصغير يعبر بهما البحيرة والضفادع يعلو نقيقتها ويعلو حتى يتصدع من صوتها الإله ويصيح ضجراً . ولكنها تمضى فى نقيقتها الذى يشبه شعر الشعراء الغنائيين ، فيما يقول النقاد فى ذلك العصر ، يصدع ولا ينتهى وأخيراً يصل إله الفن وعبده وقد أمرضهما النقيق إلى شاطئ الموت أو الجحيم . والإله فى زي هرقل يريد أن يخيف أهل الجحيم بشجاعته ، ولكنه ما يكاد يصل إلى قصر إله الجحيم حتى يضطرب ويخاف . وهذا عبده يشجعه ساخراً ، فيشجّع ويطلق الباب ، فيخرج إليه حارس القصر فى جلال وهيبة وصوت يدوئى كالرعد يسأل من الطارق ، فيقول إنه هرقل . فيخرج إليه يريد أن ينتقم منه بما أفسد فى الجحيم يوم جاء إليها . ويخاف إله الفن ويحاوره ويعافله ليستبدل مع عبده لباسه ، حتى يتلقى العبد ما قد قدر له من ضرب وتعذيب . ويقبل العبد وإذا المارون به والمخارجون من القصر يجلونه على أنه الإله هرقل ، فيعْتَظ سيدة ويطلب إليه أن يعود إلى لباسه من جديد . ولكن الحارس يخرج من القصر يريد أن ينفذ فيه العقوبة ، فيعافله مرة أخرى ويعود إلى لباس العبد ، وهكذا حتى يحار فيهما الحارس . والعمد إذا مادنا العذاب صاح أن سيده هو الإله وأنه هو العبد ، وإذا كان وقت التمجيد والإجلال أصر على أنه هو الإله ونهر سيده على أنه العبد ، بل سخر منه من السخرية . ولا يجد حارس القصر جلاً إلا أن يشبعهما ضرباً ليعرف أيهما الإله لأن الإله لن يؤذى بالضرب . والعجيب أن العبد وسيدة يثبتان لهذا الامتحان فلا يعرف الحارس أيهما السيد وأيهما العمد . وأخيراً يقول ادخلا القصر ورب القصر سيعرف الإله من العبد ، فالآلهة لاشك متعارفة . فقول العبد : حل جميل لاعيب فيه إلا أنه أتى بعد أن أشبعتنا ضرباً . ويدخلان القصر .

وقبل أن نرى ماذا حدث لهما داخل القصر لابد لنا من وقفة بهذا المنظر الذى طال بين الإله وعبده وتبادلها اللباس . فما قيمة هذا المنظر فى الفكرة العامة ؟ يقول النقاد إنه إشارة من الكاتب إلى ما كان من الأحداث السياسية

في أثينا إذ ذاك . فلقد نفت الدولة زعيما من الزعماء الذين أخلصوا لأثينا ، فرمز الكاتب بالإله في هذا المنظر إلى أثينا ، وبالعبء المخلص إلى هذا الزعيم ، يتبادلان اللباس ، فلم تكن أثينا وزعيمها إلا شيئا واحداً في الواقع . ويصيب أثينا الخير إذا سلمت نفسها إلى الزعيم كما يصيب العبد الخير إذا ما ألبسه سيده لباسه ، وهما على كل حال أمام الخير والشر وحدة لا يضاران إذا ما اتفقا ، وكل منهما قوى شجاع يستطيع أن يخوض الشدائد غير هياب ولا وجل .

والواقع أن كتاب المسرح بل أدباء أثينا عامة لم يكونوا يستطيعوا ، وخاصة في هذا العصر الذي ازدهرت فيه الديمقراطية أيما ازدهار ، إلا أن يشاروا إلى الأحداث السياسية التي كان الأثينيون يحبونها وكأنها حياتهم الخاصة ، يطربون لخيرها ويجزعون من شرها كما يطربون ويجزعون لخير حياتهم الخاصة وشرها . ولعله مما يقوى هذا الفرض أيضاً ما أتى به الشاعر في شأن هذا الزعيم نفسه في المسرحية في امتحان الشعارين فقد سماه الشاعر بالذات ، وكان إبداء الرأي فيه من أسئلة امتحان الشعارين . ولكن أقصد الشاعر حقاً إلى هذا ، أم هو أراد مجرد إضحاك الناظرين من هذا العبد الذي ظل محور الفكاهة في أكثر من نصف المسرحية ؟ إن طريقة هذا الإضحاك والتماذي في تكراره تجعل لهذا الفرض الأخير شيئاً من القيمة وتشكك المرء على الأقل في أن يكون الشاعر قد أراد بهذا الفصل جداً أو سياسة .

وتعلو الضوضاء في قصر إله الجحيم ، ويسأل إله الفن عن الأمر فيخبر . إن حدثاً قد وقع في هذا القصر العظيم . فعلى يمين الإله عرش احتفظ به ملك المسرح من المؤلفين . وشغل العرش لزمان طويل شاعر أثينا الأحمق أسخيلوس . لكن الموت حمل إليهم حديثاً شاعراً مجيداً هو أوريبيد ، فجاء هذا وحاول أن ينزل أسخيلوس عن عرشه ليحل مكانه ، وأبى ذلك أن يتنحى له ، فقامت المعركة . واقترح إله الجحيم إقامة مباراة بين الشعارين ، من فاز منهما جلس على العرش . وهذا إله الفن واللهم أئني ليستخلص أوريبيد ، فما ضره لو نظر هذه المباراة وحمل معه إلى الدار الدنيا من هو أحق بالإحياء من الشعارين . ويدعو إله الجحيم إله الفن ليحكم في هذه المباراة التي احتشد إليها رهط الجحيم كلهم متحمسين مترقبين . وتبدأ المباراة .

وفي هذه المباراة يصور لنا النزاع بين القديم والحديث . فأسخيلوس شاعر

القدامى ، وأوريبيد شاعر المحدثين . ويقف أوريبيد معتدًا بنفسه إن جمهور أثينا معه ، هم الذين نصبوه على عرش المسرح في الحياة ، وهم الذين نسوا أسخيلوس وشعره هم الذين اهترت قلوبهم لما ألف لهم من شعر ، فالجمهور معه كما هو مع المحدثين في كل نزاع قام بينهم وبين القدماء . ومن طريف ما يقول الشاعر المحدث لخصمه القديم عندما يدعى إلى تلك المباراة قوله : إنه لا يقف مع الشاعر القديم على قدم المساواة في مثل تلك المباراة . فلما سأله الإله لماذا ؟ قال : لأن شعر أسخيلوس معه هنا في الظلمات لأنه مات معه ، أما شعري أنا فليس معى لأنه حتى هناك على الأرض .

إن يكن النظر في تفاصيل هذه المباراة عسيراً لأنه يشير إلى أبيات بعينها ومواقف من مسرحيات معروفة لدى جمهور أثينا فإن جوهر الإشارات واحداً فالحديث يعيب على القديم تكلفه وبعده عن الواقع . والقديم يعيب على الحديث تزوله عما يجب له من جلال في سبيل تملق شعور العامة حيناً وتصوير الواقع الدقيق على ما في الواقع من معائب يجب أن تخفى حيناً آخر . والحديث يعيب على القديم صناعته اللفظية ، فيقول أوريبيد لآسخيلوس إنك لم تستعمل قط لفظة بسيطة ، ولما سمعتنى إله الشعر كان مرر كشافاً مزخرفاً يمج من منظره الذوق السليم فحرصت على أن أخلع عليه جمال البساطة والذوق الرفيع . والقديم يعيب على الحديث ألفاظه المبتذلة وتصويره لعامة الشعب بل جعله الملوك كعامتهم . يقول أسخيلوس لأوريبيد : إنك ألبست الأمراء والنبلاء لباس الشحاذين فظهروا في خرق مهلهلة ليستندروا عطف الجمهور ، وأسأت استعمال الكلام فلم تستعمل إلا كل عامى عادى مبتذل

ويحى بينهما النقاش وتثار قضية الأخلاق التي تثار في كل نزاع بين حدث وقديم . ويسأل الإله عما يفضل به الشاعر شاعراً ، فيجيب أوريبيد : بما يث في قوس الناس من فضيلة وما يزرع في عقولهم من حكمة . وهنا ترجح كفة القديم هذا الذي تناسى الواقع ليرسم المثل الأعلى فلا يرى الشعب إلا كل جميل وكل كامل مهذب على مسرحهم . وحجة الحديث تلك الحججة الأبدية في مثل هذا النزاع هي أنه إنما كان يصور الواقع والحقيقة . وحجة القديم أن من الواقع ما يجب ستره في سبيل الأخلاق ، وحجة الحديث أن الحقيقة أولى من الفضيلة . ويأتى الفصل الأخير حيث يهزأ الكاتب من السفسطائيين في عصره

وصناعتهم الكلامية المحضة ، فيؤتى بميزان يقف كل شاعر منهما أمام كفة من كفتيه ليقول أثقل بيت من أبياته فيحكّم الإله أيهما كان أثقل ميزاناً . يقول أوريبيد مثلاً « إن الكلام معبد الإقناع ومذبحه » . ويقول أسخيلوس « إن الموت إله لا يقبل الضحية » . ويوزن البيتان فترجح كفة أسخيلوس . فإذا سئل الإله لماذا ؟ قال : إنه ذكر في بيته الموت والموت أثقل المصائب فكيف لا ترجح كفته . وهكذا لعب بالألفاظ صريح ترجح فيه كفة الشاعر القديم أبداً . ويأتى امتحان أخير يقوى فكرة الرمز السياسى فى الفصل الذى تبادل فيه الإله والعبد لباسهما ، وهو سؤال صريح عن هذا الزعيم المنفى من أجاب عنه إجابة خيراً من صاحبه فقد فاز ، فيجيبان ويظل الإله حارّاً . ويتطور السؤال من رأى فى الزعيم إلى سؤال عما يراه الشاعر وسيلة لإرجاع أثينا إلى ما كانت عليه من مجد وأمن ورخاء ، فيجيب الشاعران وكان الشاعر الحديث أحسن إجابة ؛ يقول القديم لأنه أحدث عهداً بالمدينة وأحوالها . ويأتى ميعاد النتيجة والكل متلهف على سماعها وخاصة أن الإله قد وعد أن يأخذ معه إلى أثينا الشاعر الفائز . ويتلصق الإله فى التفضيل . إنه يشعر بما نشعر به جميعاً نحو القديم والحديث بل بما نشعر به الناس فى كل العصور نحو المتنازعين فى هذا النزاع الأبدى . إن أحدهما يعجب والآخر يُلذ ويُطرب ، فأيهما أفضل ؟ وأخيراً يفضل الإله الشاعر القديم . والطريف حجته فى ذلك إذ يقول : « ذاك أنى أميل إليه » . وكأما الذوق الشخصى هو كلمة الفصل فى النقد . وهنا يثور الشاعر الحديث وقد جزع أن الإله سياتركه للموت فيقول له « يا قاسى القلب أتتخلى عنى للموت ! » فيجيبه الإله بأسلوبه الفكاهة الذى لازمه طوال المباراة : « ولم لا فعل الموت خير من الحياة ولعل فى الموت حياة وفى الحياة الموت » . وقبل أن يغادر إله الفن الجحيم مع شاعره يقام له حفل يكرم فيه هو وشاعره وبذلك تنتهى المسرحية . لم يكن أرسطوفان أول من ابتدع صورة هذا النزاع بين الشعراء محكمة أو مباراة بين القديم والحديث ؛ فلقد سبقه الشعراء وغير الشعراء إلى ذلك وإن يكن ما فعلوه فى هذا المضمار لم يصلنا إلا ناقصاً مشوهاً ، ولكنه على نقصه وتشويهه يدل دلالة واضحة على هذه الصورة . ولعل النزاع بين أسخيلوس وسوفوكليس كان قريب عهد بأرسطوفان . ولم يميز أرسطوفان بأنه صور لنا الإله فى سذاجة فكهة كانت روح الإضحك فى المسرحية وخاصة عندما ما ينهيه الشعراء

إلى مواضع الجمال والتبجح في مسرحياتهم فيوافق عليها في سداجة من قد أحسبها فعلا من قبل ولم يستطع أن يعبر عنها بل خاصة فيما صوره من عدم الكلفة الصريحة بين الإله وأبطال المسرحية مما جعل تلقيه بالمغفل أو الجاهل أبسط ما يوجه إليه من ألفاظ ، فلقد فعل الشعراء ذلك من قبل في آلهتهم؛ إذ أن تلك كانت أهم مميزات شعور الاثيني القديم الديني نحو آلهته في المعابد وفي الحياة الخاصة . كل ما امتاز به أرسطوفان هو النظرة النافذة ، نظرة الناقد الحق في الشعر وما يجب له ، وفي شعر هذين الشاعرين بالذات ، نظرة جعلت تصوير هذا النزاع على قدمه قويا كاملا ، قدأ كسبه الفن المسرحي روعة وجمالا . وبذلك تعد تلك المسرحية أقدم ما نعرف من صورة لهذا النزاع يصورها ناقد حق ، ولعلنا لا نكون مغالين إذا أضفنا : وأجل صورة له أيضا .

مسرح القلماري